اجتهادات
يقينُ مستحيل

يثير الكتابُ أسئلة وجودية تتعددُ بالضرورة إجاباتها، وبلا يقينٍ بأيها يقتربُ من الحقيقة، ولكنها حافزةٌ للتفكير والتأمل. هذا هو تعليق د. محسن توفيق أستاذ الهندسة والمثقف الموسوعى على اجتهاد 31 أكتوبر الذى يتضمنُ تحليلا مختزلا لكتاب الصديق جمال أبو الحسن (قصة البشر). وكان المعنى الأساسى فى هذا التعليق حاضرًا فى معظم التعليقات الأخرى. وهذا

▪طبيعىُ ومفهوم، إذ ليس طبيعيًا أن نركن إلى ما نظنه يقينًا فيما لا يقين فيه

ولهذا استغربتُ الإيمان اليقينى لدى الصديق أبو الحسن فى تعليقه المنشور هنا أمس بأن نمط الحياة الذى نعرفه الآن سار فى مسارٍ حتمى، وأنه ساد ونجح على مر الزمن. فما يراها حججًا تبررُ هذا اليقين ليست أكثر من تفسيراتٍ مختلف عليها علميًا. كما أن بعضها حجةٌ ضد اليقين بحتمية مسار التراتبية الفجة التى حوَّلت حياة معظم البشر إلى جحيمٍ على الأرض فى كل العصور. فإذا كانت أدمغةُ البشر تعملُ بالطريقة نفسها، وتكويناتهم النفسية متشابهة وفق ما ورد فى تعليق أبو الحسن، فهذا يعنى أن الفروق المهولة بينهم تعود إلى عوامل اجتماعية، وليست بيولوجية، وأنها بالتالى مصنوعةٌ، وليست طبيعية، وأن صانعيها يملكون القوة والسطوة ويفتقدون الأخلاق والقيم الإنسانية على نحو يجعلهم سُعداء بقهر كل من دونهم

▪وإذلالهم

ولهذا يستحيلُ التيقن من أن نمط حياة صُنع بالقوة فى عصور ما قبل التدوين، وفى ظروف مختلف بالضرورة على تقديرها، هو النمط الطبيعى والحتمى. ربما يكون التفسيرُ المحافظ الذى يسعى أنصاره إلى تبرير هذا النمط صحيحًا، وقد يكون خطأ. وقل مثل ذلك عن التفسير التحررى، الذى يقومُ على أن استمرار نمطٍ معين فى الحياة ليس دليلا على حتميته، إلا إذا كان معظم البشر عبر العصور يعشقون الذل والهوانُ اللذين عاشا، ويعيشون، فيهما. ويكفى إلقاء نظرة سريعة على حياة البشر اليوم, والخطر الذى يهددُ الكوكب برمته, للحكم على نمط الحياة القائم على تراتبية التفاوت الرهيب، وإعلاء

▪القوة فوق الحق والأخلاق. وليس هذا إلا قليلا من كثير يفرضُ الحذر عند التعامل مع قضايا يستحيلُ أن يكون فيها يقين